الطريق إلى السابع من أكتوبر: تاريخ موجز للإسلام السياسي الفلسطيني

Road to October 7: A Brief History of Palestinian Islamism

تحرير: إريك سكار — *Author: Erik Skare*

الناشر: فِرسو للكتب، 2025 — *Publisher: Verso Books, 2025*

مراجعة: بتول سوروجو — *Reviewed by:Betül Sürücü*

عدد الصفحات: 240 — *Pages: 240*

يُعَدّ عمل إريك سكار المعنون بـ«الطريق إلى السابع من أكتوبر» دراسةً دقيقةً وعميقةً تتناول الإسلام السياسي في فلسطين من خلال سياقاتٍ تاريخيةٍ وأيديولوجيةٍ وسياسية. يحلل المؤلف، اعتمادًا على مصادر أولية ومجموعات بيانات أصلية، نشأة فاعلين، مثل حركة حماس والجهاد الإسلامي، وديناميكياتهم الداخلية، والظروف التي أفرزتهم، وأسباب وجود تعدد الجماعات المقاومة في فلسطين، بالإضافة إلى عوامل وقوع السابع من أكتوبر. ومن خلال تقييم الأزمات الراهنة في إطار استمرارية تاريخية، يقدّم سكار منظورًا يتجاوز المقاربات الاختزالية تجاه الحركات الإسلامية في فلسطين.

يُعَدّ هذا العمل مرجعًا بحثيًّا موثوقًا؛ إذ يقدّم الطبيعة متعددة الطبقات والمعقّدة للإسلامية الفلسطينية بأسلوبٍ واضحٍ وتحليلي، ويستند إلى مصادر موثقة بدقة. الرسالة الأساسية التي يسعى الكاتب إلى نقلها في العمل هي أن غزة كانت تُعاني انتهاكاتٍ خطيرةً لحقوق الإنسان، وقمعًا منهجيًّا قبل 7 أكتوبر 2023، وأن لجوء الفصائل الفلسطينية إلى المقاومة المسلحة جاء نتيجة العنف الهيكلي، والضغوط المستمرة التي تعرّضت لها. وبناءً عليه، يؤكد النص أن الحركات الفلسطينية لم تتطرّف طوعًا، بل دُفِعت نحو التطرف بفعل الظروف المحيطة بها، وتتسق سردية الكتاب مع توقعات العنوان. يتألف الكتاب من سبعة فصول، يبيّن المؤلف في المقدمة هدف تأليفه والمصادر التي استُفيد منها خلال عملية البحث بوضوحٍ وتفصيل.

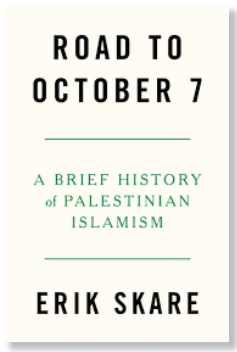

يركّز الفصل الأول من الكتاب، بعنوان «الحل هو الإسلام»، على الخلفية التاريخية والأسس الأيديولوجية لحركة حماس بوصفها الفاعل الرئيس في المقاومة الفلسطينية. لا يقتصر الكاتب في عرضه التاريخي للحركة على نشأتها في فلسطين كفرعٍ لجماعة الإخوان المسلمين فحسب، بل يتناول أيضًا جذورها

DOI:10.36360/1560-014-004-009

الفكرية والتنظيمية، وهو ما يوفّر إطارًا شاملًا لفهم الحركة الإسلامية في فلسطين.

في هذا السياق، يقدّم الفصل للقارئ دوافع حركة الإخوان المسلمين بقيادة حسن البنا تجاه القضية الفلسطينية، ويعرض كيفية ظهور الحركة في فلسطين وآليات عمل نموذجها التنظيمي المركزي بصورة شاملة وواضحة. ويشير المؤلف كذلك إلى تأثير حرب عام 1948، التي تُعدّ محطةً مفصليةً في تاريخ فلسطين، في مسار الحركة الإسلامية الفلسطينية. ويتناول أيضًا التحولات الديموغرافية التي شهدها قطاع غزة نتيجة موجات الهجرة المكثّفة بعد الحرب، مسلطًا الضوء على أثر طبقة اللاجئين الجديدة في تشكيل البنية الاجتماعية والسياسية للقطاع.

وتتمثّل نقطة محورية أخرى في الجزء الأول في التميّز السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي بدأ يظهر بين الضفة الغربية وقطاع غزة. ومن هذا المنطلق، تتبوّأ دراسة سيطرة الأردن على الضفة الغربية ومصر على غزة عام 1949 مكانةً مهمة في تفسير الديناميكيات السياسية الراهنة في المنطقة، وفهم كيف تطوّرت الحركة الإسلامية بأشكال مختلفة تحت سلطاتٍ متباينة.

يناقش الكاتب أيضًا كيفية إسهام التحولات السياسية في مصر في تشكيل الحركات الإسلامية في فلسطين، مع تركيز خاص على التأثير العميق لسياسات جمال عبد الناصر في جماعة الإخوان المسلمين في غزة عقب انقلاب عام 1952. ويقدّم المؤلف أيضًا قراءة شاملة لحياة الشيخ أحمد ياسين، الذي يمثّل شخصية محورية في فهم حركات المقاومة الإسلامية في فلسطين، إلى جانب استعراضه سير عبد العزيز الرنتيسي وموسى أبو مرزوق وإبراهيم المقادمة، بوصفهم من الشخصيات البارزة في النضال الفلسطيني.

وبذلك، يضع هذا الفصل إطارًا معرفيًا متينًا لفهم الأسس الفكرية والتاريخية لحركة حماس وأهدافها. أما أبرز ما قدّمه الكاتب في هذا القسم، فهو تناوله النقدي للادعاءات التي تزعم أن حماس تشكّلت بتوجيه من الاستخبارات الإسرائيلية، حيث قدّم ردًّا تحليليًّا مفصّلًا يفنّد تلك الادعاءات. ويُبرز المؤلف كذلك الصراع الأيديولوجي بين الجماعات الماركسية في فلسطين وجماعة الإخوان المسلمين، من خلال عرضه ميل الأخيرة إلى تبنّي نهجٍ نضالي قائمٍ على أسسٍ فكريةٍ وأخلاقيةٍ واضحة.

الفصل الثاني، المعنون بـ«إحياء الخلافة»، يتناول حزب التحرير، وهو حزبٌ سياسيٌّ إسلاميٌّ فلسطيني أُسِّس في القدس عام 1952، مركّزًا على أفكار مؤسسه تقي الدين النبهاني والتحولات الفكرية التي مرّ بها. يبدأ الكاتب بالإشارة إلى أن النبهاني يختلف عن الشخصيات التي تُستحضَر عادةً في سياق الإسلام السياسي الفلسطيني، مثل أحمد ياسين أو فتحي الشقاقي أو عبد الله عزام.

ويؤكد المؤلف أن حزب التحرير، الذي يتمحور هدفه حول إعادة تأسيس الخلافة الإسلامية، يتميّز عن الحركات الإسلامية الأخرى في فلسطين، إذ لا يشارك في النضال المسلح أو الأنشطة الاجتماعية، وهذا يجعله فريدًا من نوعه ضمن خريطة الإسلام السياسي الفلسطيني. ويُعَدّ هذا الجزء ذا أهمية خاصة لفهم التوجهات الفكرية للحزب الذي لا يضع تحرير الدولة الفلسطينية ضمن أولوياته، خلافًا للتيارات الإسلامية الأخرى في السياق ذاته.

ويتناول الكتاب أيضًا الأسباب التي جعلت حزب التحرير غير جذاب للفلسطينيين، ومن أبرزها تجاهله حتى الحقائق السياسية الأساسية، وافتقاره إلى السلوك الإستراتيجي العملي، وتركيزه على الحلول الأيديولوجية المجرّدة بدلًا من العمل على تغيير البنى الاجتماعية والظروف المادية.

ومن هذا المنطلق، يخلص الكاتب إلى نتيجة مهمّة مفادها أن نجاح الحركات الإسلامية الفلسطينية مرتبطٌ ارتباطًا وثيقًا بالموقف الذي تتبناه من القضية الفلسطينية، لا بمجرد تبنّيها شعارات أيديولوجية عامة.

يسلّط الفصل الثالث، المعنون بـ«صعود الطليعة»، الضوء على تأسيس حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، بوصفها أحد الفاعلين الرئيسين في المقاومة الفلسطينية، متناولًا الخلفية الفكرية لمؤسسيها، وعلاقتها بجماعة الإخوان المسلمين، إلى جانب استعراضه أحداث الانتفاضة الأولى. يؤكد الكاتب أن ظهور حركة الجهاد الإسلامي جاء ردّ فعلٍ على سلسلة من الأحداث التاريخية المفصلية، أبرزها الهـزيمة العربية عام 1967، والثورة الإيرانية عام 1979، وتراجع منظمة التحرير الفلسطينية عن نهج الكفاح المسلح، بالإضافة إلى الموقف المحافظ لجماعة الإخوان المسلمين الذي استند إلى مقومات فكرية ودينية. ومن خلال هذا التحليل، يخلص المؤلف إلى أن الجهاد الإسلامي يمثّل نتاجًا طبيعيًّا لمرحلة تاريخية معينة من مسار المقاومة الفلسطينية.

ويمتاز هذا القسم بتحليلات دقيقة قدّمها الكاتب حول طبيعة المقاومة الفلسطينية وتحوّلاتها. ففي هذا السياق، يجادل بأن الاختلاف بين الجماعات الفلسطينية المسلحة يقوم على أساس إستراتيجي أكثر من كونه أيديولوجيًّا، إذ إن عددًا كبيرًا من المنضمين إلى فصائل المقاومة لم يفعلوا ذلك بدافع الانتماء العَقَدي، بل إيمانًا بإستراتيجيات محددة للتحرر الوطني. ومن ثمّ، يرى الكاتب أن توجّه هؤلاء نحو الخيار الإسلامي المسلح، المتوافق مع قناعاتهم الدينية، يُعدّ تطورًا طبيعيًّا.

ويتوصّل المؤلف أيضًا إلى أن الحركات القومية العربية لم تكن علمانيةً بالكامل كما هو شائع، مستشهدًا بخطابات عددٍ من القادة القوميين الذين استخدموا رموزًا ومفرداتٍ دينيةً في خطابهم السياسي. ومن النقاط اللافتة في هذا الفصل أن المؤلف يقدّم معطيات بصرية وبيانية عن خصائص أعضاء حركة الجـهاد الإسلامي في مراحلها الأولى، مما يسهم في رسم صورة واقعية ومجسّدة للحركة في ذهن القارئ.

وتبرز كذلك ملاحظة الكاتب بأن حركة الجهاد الإسلامي أسهمت في تسريع تحوّل جماعة الإخوان المـسلمين إلى تنظيم مقاوم مسلح نشط، وهي نقطة تحليلية ذات أهمية خاصة لفهم تطور المشهد الإسلامي المقاوم في فلسطين. وبذلك، يُعَدّ هذا الجزء بمثابة تمهيدٍ معرفيٍّ ومنهجيٍّ للدخول في دراسة عملية تأسيس حركة حماس، وإعداد القارئ للمرحلة المحورية التالية في العمل.

الفصل الرابع من الكتاب، المعنون بـ«السلام، الدم والمعدن المعقود»، يتناول اتفاقية أوسلو، وتفاعل المـعارضة الإسلامية الفلسطينية مع مسار السلام، بالإضافةً إلى استعراض تأسيس كتائب القسام. يبدأ المـؤلف هذا الفصل بعرضٍ تفصيليٍّ لحياة أحد أبرز وجوه المقاومة الفلسطينية، يحيى السنوار، مبرزًا التحول الفكري الذي شهده خلال نشأته في مخيّم اللاجئين، حيث واجه واقع وطنه عن قرب، وتشكّل

وعيه السياسي والوطني في ظل بيئةٍ مشحونةٍ بالظلم والحــرمان. في هذا السياق، يوضح الكاتب كيف أن صراعه مع المتعاونين ترك أثرًا عميقًا في شخصيته، فشكّل بالنسبة إليه خطًّا أحمر لا يمكن تجاوزه. ومن هنا تبرز أهمية وحدة الاستخبارات الداخلية «المجد» التي أنشأها السنوار بوصفها نموذجًا ملموسًا لتلك الحساسية الأمنية والفكرية.

وفي هذا الإطار، يتتبّع المؤلف المسار الذي امتدّ من تجربة «المجد» إلى تأسيس كتائب القسام، مسلّطًا الضوء على البنية التحتية التنظيمية والعسكرية للكتائب بالاستناد إلى بيانات كمية دقيقة. ويُعدّ الجزء الأهم في هذا الفصل ما يقدّمه من تحليل معمّق للهيكل الإداري لحركة حماس، مع توضيح التغيرات الجوهرية التي طرأت عليه بمرور الزمن. وتبرز أهمية هذا التحليل في شرحه موازين القوى داخل الحركة، من خلال التمييز بين القيادة الداخلية والخارجية، وكذلك بين التيار المعتدل والمتشدد، وهو ما يشكّل إحدى الحجج المركزية في الكتاب.

ويناقش المؤلف كذلك التحولات البنيوية التي شهدتها حماس في ضوء التطورات السياسية والاجتماعية خلال تلك الفترة، ليصل إلى استنتاج لافت مفاده أن الانقطاع بين البنى التحتية الناشئة داخل الحركة يشير إلى وجود أكثر من «حماس» واحدة، وهو أحد أبرز الاستنتاجات الفكرية في العمل.

إلى جانب ذلك، يقدّم هذا الفصل تحليلًا دقيقًا لـ«عملية أوسلو»، مظهرًا كيف غيّرت هذه العملية طبيعة العلاقات بين الجماعات الإسلامية واليسارية الفلسطينية على أساس الاستياء المشترك من المسار التفاوضي، ومؤكدًا أن تأثيرها في الحركات الإسلامية أعمق مما يُظَنّ عادةً.

ومن الموضوعات المهمّة التي يعالجها الكاتب في هذا الفصل أيضًا إسهام حركتي حماس والجهاد الإسلامي في الفكر السياسي الفلسطيني، حيث يخــصّص مساحة واسعة لدراسة رؤية كلتا الحركتين لمــفهوم الدولة المثالية، بما يعكس البعد الفلسفي والسياسي العميق في فهم المشروع الإسلامي الفلسطيني.

يحــلّل الفصل الخامس من الكتاب، المعنون بـ«السلاح والحكم»، أحد أبرز المنعطفات في التاريخ السياسي الفلسطيني، المتمثّل في تولّي حركة حماس دورًا قياديًّا على الساحة السياسية. يناقش الكاتب في هذا الجزء الانهيار الفعلي لاتفاقية أوسلو، وما تبعه من اندلاع الانتفاضة الثانية، التي شكّلت نقطة تحوّل محــورية أعادت إلى الحركات الإسلامية الفلسطينية مكانتها كحركات مقاومة مسلّحة.

يشير المؤلف إلى الأسس الاجتماعية والسياسية التي أوجدتها الانتفاضة الثانية، ويخلص إلى أن هذه الانتفاضة كانت منحة إستراتيجية لكلٍّ من حركة الجــهاد الإسلامي وكتائب القسام، إذ أتاحت لهما استعادة زخمهما النضالي، وتعزيز حضورهما في المشهد الفلسطيني. ويركّز الكاتب أيضًا على صعود حماس على شكل فاعلٍ سياسيٍّ محوري، جاعلًا هذا التحوّل أحد أهمّ التطورات في التاريخ الفلسطيني المعاصر.

وفي هذا السياق، يتناول المؤلف الانقسامات الأيديولوجية العميقة التي رافقت فوز حماس في الانتخابات، مؤكدًا أهميتها في فهم المسار الذي يسعى الكتاب إلى توضيحه. إذ يظهر في هذا القسم بوضوح الانقسام الداخلي داخل حركة حماس بين التيارين

المعتدل والمتشدّد، وهو ما يشكّل بؤرة تحليلية أساسية في العمل.

ويصل الكاتب إلى استنتاج لافت يتمثّل في أن إدارة حمـــاس للحكم أسهمت بشكل غير مباشر في تسريع صعود التيار السلفي الجهادي في فلسطين، وهو تيار لم يكن معروفًا أو مؤثرًا من قبل. كما يسلّط الضوء على تأثير هجمات 11 سبتمبر 2001 في النضال الفلسطيني، موضحًا دورها في تغيير الرأي العام العالمي تجاه الحركات الإسلامية، ولا سيما تلك المنخرطة في العمل المقاوم.

وفي هذا الإطار، يبيّن الكاتب الاختلافات الأيديولوجية والعملية الجوهرية بين حركات المـــقاومة الإسلامية، مثل حماس والجهاد الإسلامي، وبين الجماعات السلفية الجهادية كداعش والقاعدة، رافضًا الرأي الذي يربط بينها بأنها امتداد واحد أو ناتجة عن أصل فكري مشترك.

أما الاستنتاج الأبرز في هذا القسم، فهو أن إخفاق الجماعات الفلسطينية في تحقيق إنجاز سياسي مستدام يعود إلى استخفافها بعملية بناء الدولة القومية في «إسرائيل»، وهو طرح جريء يعكس الرؤية النقدية العميقة التي يعتمدها المؤلف في تحليله مسار الصراع الفلسطيني المعاصر.

الفصل السادس، المعنون بـ«المقدمة»، يُعدّ من أكثر فصول الكتاب قدرةً على عكس الطريق إلى السابع من أكتوبر بصورة واضحة ومركّزة. يبيّن هذا الفصل الآثار غير المتوقعة لفوز حركة حماس في الانتخابات، سواء على الحركة ذاتها أم على المقاومة الفلسطينية عمومًا. فمع تحوّل حماس إلى فاعلٍ سياسيٍّ رسميٍّ، سعت إلى إحداث تغييرات في البُنى الإدارية بما يخدم استمرار المقاومة، غير أنّها، بعد تولّيها السلطة، اضطرت إلى تبنّي سياساتٍ أكثر واقعية نتيجة القيود البنيوية والسياسية التي واجهتها داخليًّا وخارجيًّا.

وفي هذا الإطار، يبرز استنتاج الكاتب اللافت بأن محاصرة حمـــاس بين مهمّتي حماية الشعب واستمرار المـــقاومة قد غيّرت طبيعة الحركة نفسها؛ لتتحوّل من تنظيم مقاوم صرف إلى كيان سياسي ذي حسابات مؤسسية معقّدة. كما يشير المؤلف إلى أهمية التعامل مع حماس وكتائب القسام كفاعلينِ منفصلينِ، لكلٍّ منهما دوافعه وهياكله ومسؤولياته الخاصة، وهو طرح يسبغ مزيدًا من العمق على فهم البنية المزدوجة للحركة.

ويواصل الكاتب في هذا الفصل تحليله تأثير الثورة الإيرانية على المقاومة الفلسطينية، الذي سبق أن تناوله في الفصول السابقة، لكنه هنا يوسّع الإطار التحليلي ليُظهر أن تأثير الدولة الإيرانية في الحركات الإسلامية في فلسطين أعمق وأكثر تحديدًا مما كان يُعتقَد سابقًا، مؤكدًا أن العلاقات بين الجانبين تجاوزت البعد الأيديولوجي إلى التنسيق الإستراتيجي طويل الأمد.

أما القسم الأخير من هذا الفصل، فيعود ليركّز مجددًا على شخصية يحيى السنوار، حيث يقدّم الكاتب تقييمات شخصية دقيقة تصفه بأنه قائد كاريزمي يتمتع بقدرة عالية على التكيّف والقيادة في الأزمات. ويرى المـــؤلف أن السنوار فاعلٌ سياسي أكثر تعقيدًا مما يبدو في الظاهر، إذ يقوم بدور الجسر الحيوي بين الجناحين العسكري والسياسي لحركة حماس، وهو استنتاج ذو دلالة كبيرة في فهم ديناميكيات الحركة من الداخل.

ويتناول الكاتب في ختام هذا الفصل ظهور شبكات الأنفاق، ودورها المحوري في الحرب غير المـــتكافئة، مبرزًا كيف تحوّلت هذه الشبكات إلى

شريان حياة إستراتيجي يوازن بين التفوق العسكري الإسرائيلي وإمكانات المقاومة المحدودة. ويُعَدّ هذا التحليل عنصرًا أساسيًّا في فهم المسار الذي قاد إلى أحداث 7 أكتوبر 2023م بصورة دقيقة ومتوازنة، تُظهر عمق التحولات التي شهدتها المقاومة الفلسطينية خلال العقدين الأخيرين.

يتميّز الفصل الختامي من الكتاب، الذي يحمل عنوانه «الطريق إلى السابع من أكتوبر»، بالتقييمات التحليلية الدقيقة التي يقدّمها المؤلف. يشدّد الكاتب على أن حركة حماس قد عادت مجددًا إلى خيار المقاومة المسلّحة بعد إخفاق جهودها في مسار الحوار السياسي. كما يشير إلى أن الحركة، التي سعت عبر انتخابات عام 2006 إلى تطبيع علاقاتها مع الغرب، قد جرى استبعادها بسبب هويتها الأيديولوجية، واضطُرّت إلى تقديم تنازلات عن بعض مبادئها في أثناء تولّيها السلطة.

ومن النقاط التي تستحق الإشارة في هذا القسم مفهوم «حماس المتعددة» الذي طرحه المؤلف، والذي يوضّح الفرق بين الجناح المعتدل والجناح المتشدد داخل الحركة. ويرى المؤلف أن سياسات الاتحاد الأوروبي والحصار الإسرائيلي أدّيا إلى إضعاف الجناح المعتدل وتعزيز الاتجاهات المتشددة داخلها.

ويبرز الكتاب أن الجاذبية الأيديولوجية للإسلام السياسي الفلسطيني تستند أساسًا إلى المشاعر الوطنية، وأن حركات مثل حماس تمثل تعبيرًا عن المـقاومة الوطنية في إطار ديني. ولذلك، فإن النضال الوطني الفلسطيني سيستمر حتمًا بأشكال أخرى، حتى في غياب حركة حماس.

وبالإضافة إلى كل ما سبق، يمكن القول في إطار نقدي: إن الكتاب رغم أنه يغطي الشخصيات التاريخية والمعاصرة، إلا أنه لم يتم الإشارة إلى القادة السياسيين المعاصرين لحماس مثل إسماعيل هنية؛ وهذا يقدم للقارئ منظورًا محدودًا لفهم إستراتيجيات الحركة السياسية الحديثة وإدارتها. كما أن تركيز الكاتب الأساسي على العمليات العسكرية والصراعات جعل البُعدين الاجتماعي والسياسي، مثل الخدمات الاجتماعية والبنية التحتية للرعاية وإنتاج الفكر السياسي، في المرتبة الثانية. ومن الناحية النظرية، يستخدم الكتاب نموذج الصراع الثنائي بين المعتدلين والمتشددين داخل الحركة أساسًا للتحليل، إلا أن المـرونة الأيديولوجية داخل الأجنحة، وتغير المواقف يحدّ من قوة هذا النموذج التفسيرية. وعليه، يمكن ملاحظة وجود بعض الثغرات المعلوماتية والحدود التحليلية على المستويين التاريخي والنظري.

أخبار العالم
من منظور تركي

اقرأ «ديلي صباح»
لتبقى على اطلاع على ما
يجري في تركيا
والعالم من تطورات

TURKUVAZ
MEDIA GROUP

DAILY SABAH

www.dailysabah.com
www.dailysabah.com/arabic

TURKUVAZ
MEDYA GRUBU

SABAH